

تاريخ القبول: 2024/10/23

تاريخ الإرسال: 2024 /02/28

تاريخ النشر: 2025/04/30

تمام حسان وأصول الوصفية الغربية

Tammam Hassan and the origins of the western
descriptivismملیكة بوباكیر¹، محمد الزین جیلی²¹ جامعة عبد الرحمن ميرة (الجزائر)، malika.boubakir@univ-bejaia.dz² جامعة عبد الرحمن ميرة (الجزائر)، mohamedzine.djili@univ-bejaia.dz

الملخص:

يروم هذا المقال إلى إعادة النظر في النموذج الذي قدمه تمام حسان من خلال مؤلفاته والقضايا اللسانية التي طرحها ومعالجة الأفكار الأصلية التي استمدها من المناهل الغربية واستقصائها، فلا غرو أن الثقافة المزدوجة التي تشبع بها تمام حسان وإطلاعه الكبير على التراث اللغوي العربي من أجل خدمة اللغة العربية جعله يقدم على تطبيق المنهج الوصفي الذي عرف في الغرب على اللغة العربية وذلك بتقديم التراث اللغوي العربي في صورة بسيطة للقارئ في إطار محاولات التيسير وإدعاء الوصفية إلا أنه لم يلتزم بمقولات الوصف وكانت جل تقويماته تعتمد على منطلقات أصحابها النظرية .

لقد مزج تمام حسان في تأليف أربعة بين التراث والحداثة ما جعله ينزع منزع التوفيق إلا أنه سرعان ما تخلى عن فكرة التوفيق المعرفي وانقلب تراثيا خالصا منذ عام 1981 وذلك بصور كتابه (الأصول) غير أن كتاباته في لسانيات التراث لم

تأتي بالجديد وما هي إلا محاولة لإدخال التراث النحوي العربي في حوار مع اللسانيات.

الكلمات المفتاحية: الحداثة؛ الوصفية؛ التراث اللغوي؛ النظرية ؛ التراث النحوي العربي ؛ اللسانيات؛ التوفيق.

Abstract:

The aim of this article is to examine the consideration of the model presented by Tammam Hassan through his works and the linguistic issues that may arise in the application of Western theories and approaches, by dealing with the original ideas that he has drawn from Western linguistic corpora and studied them. it is no longer strange that the dual culture that assimilated Tammam Hassan, and his great knowledge of the Arab heritage in order to serve the Arabic language, led him to apply to the Arabic language the descriptive approach that was known in the West by presenting the Arabic linguistic heritage in a simple way that is comprehensible to the reader in the context of attempts to facilitate the reading of linguistic theories, Nevertheless, most of his evaluations were based on theoretical premises, the origins of which are still linked to Western linguistic theory.

Tammam Hassan in these four works tried to combine between heritage and modernity in a framework of reconciliation, but he quickly abandoned the idea, and since 1981 has turned to the pure Arabic linguistic heritage and the publication of his book (Origins) demonstrates, despite this, his writings in linguistics have not brought anything new and are only an attempt to introduce the Arabic grammatical heritage in dialogue with linguistics.

Keywords: modernity; descriptive; linguistic heritage; theory; the Arabic grammatical heritage; linguistics; eclecticism.

المؤلف المرسل: مليكة بوباكير، الإيميل: MALIKABOUBAKIR@GMAIL.COM

1. مقدمة:

إنّ تركيزنا على الخطاب اللساني الوصفي البنيوي ليس مردّه إلى كونه أكثر المناهج اللسانية علمية، بل هو تركيز في الحقيقة يملّيه علينا واقع التفكير اللساني الحديث في القرن العشرين من حيث اصطباغ اللسانيات به، إما بتقلده أو بنقده، ولم تكن اللسانيات العربية الحديثة . في تصورنا . بدعاً من ذلك . حيث عرف الخطاب اللساني العربي الحديث تنازع مقولتي الوصفية والمعيارية.

ولمّا كانت اللسانيات الوصفية بمحمولها العلمي الدقيق . وليس بمفهومها العام . نظرية هيكلها غربي على حد تعبير تمام حسان الذي أمّنا . كدأب معاصريه من المنتسبين إلى الوصفية من أمثال أنيس فريحة، عبد الرحمن أيوب، محمود السعران، ابراهيم أنيس وغيرهم . بالمرجعية التأسيسية لهم، ذلك أنهم يستشهدون بأعلام الوصفية الغربية بوصفهم سلطة معرفية، ولمّا كان الأمر كذلك حاولنا ما في وسعنا الرجوع إلى المناهل الغربية لتلك المرجعية التأسيسية وعلى وجه الخصوص عند سوسير محاولين في ذلك الإجابة عن إشكالية أساسية مدارها على ما مدى حجية دعوى الوصفية؟ فهل دعوى الوصفية، محلّ السبر والتمحيص في هذا المقال، من السهل أن يُستدل عليها؟ وما مدى حُجّية المرجحات والذرائع والمسوّغات التي سيقّت في تعضيدها؟

ذلك أن الإجابة عن هذه الإشكالية الرئيسة تقضي بنا إلى فحص أصول التأسيس النظري لدعاة الوصفية العرب المحدثين وذلك بالتطرق إلى جهود رائدها تمام حسان بالعرض والتحليل والمناقشة، وتبيان مرتكزات نظريته اللغوية، والمرجعية الفكرية له

وما جاء به مشروعه لإعادة قراءة التراث اللغوي العربي، ومدى إسهام هذه الجهود في إثراء الدرس اللساني العربي.

أما المنهج الذي اعتمدناه في دراستنا هذه فهو المنهج التحليلي النقدي؛ الذي يقوم على الاستقراء والتحليل.

2. الوصفية ومنزعة التوفيق في الخطاب اللساني العربي

اقتترنت الدعوة الأصولية¹ إلى الوصفية والتبشير بها بادئ الأمر برفض المعيارية ونقد التراث اللغوي العربي، كما هو الحال عند تمام حسان في كتابه "مناهج البحث في اللغة"، وأنيس فريحة في كتابه "تبسيط قواعد اللغة العربية: اقتراح ونموذج"، وإبراهيم أنيس في كتابه "من أسرار اللغة"، وعبد الرحمن أيوب في كتابه "دراسات نقدية في النحو" وأمين الخولي وريمون طحان... على أن تمام ينزع منزعاً توفيقياً حين يقتبس من التراث اللغوي بعض مفاهيمه كما هو الحال حينما اقتبس مفهومي الاعتبارية والتعليق من الجرجاني²، واستشهاده كذلك بأقوال ابن مضاء القرطبي³ في ردوده على نظريتي العلل والعامل النحوي حيث يكشف لنا تماماً من خلال ردوده على مفهومي العلة والعامل في النحو العربي القديم عن تعسف في التأويل، حين ذهب إلى القول إن النحاة قد نظروا إلى اللغة نظرتهم إلى الأشياء بحيث تصبح العلة على هذا علة موجبة وهو ما يدحضه الزجاج في الإيضاح حيث يقول: أولاً: إنَّ علل النحو ليست موجبة؛ وإنما هي مستتبطة أوضاعاً ومقاييس وليست كالعلل الموجبة للأشياء والمعلولة بها، ليس هذا من تلك الطريق⁴.

فقد رفض تمام حسان شأنه شأن الوصفيين العلة، ونظرية العامل، والإعراب التقديري، وعدداً من الأصول والمفاهيم الموجودة في التراث، ويرفض الانتقال من شيء ملاحظ إلى شيء مجرد، لأن هذا ليس من العلمية في شيء،

وأن العلم يجب أن يكتفي بالملاحظة الخارجية، والتساؤل عن الكيف، ولا يتعدى ذلك إلى التساؤل عن علة وجود الظاهرة، ولا يدلنا تمام حسان على مرجع نسترشد به، لأن هذا الشيء في نظره "معروف" كما يقول، ونحن طبعاً لا نعرف هذا، بل نعرف أن النظرية العلمية يجب أن ترقى إلى مستوى تفسيري، ولا تكتفي بالملاحظة الخارجية في جميع الأحوال، بل تبحث في الكيف وفيما وراء الكيف، فأين هذا العلم المعروف كما يعرفه تمام حسان؟⁵

وكذلك صنع أنيس فريحة حين عدّ ابن جني وابن مضاء من رواد الوصفية في قوله « ولا تحسن هذه الحركة اللغوية حديثة العهد. إنما حركة لغوية قديمة فإنني لا أعرف أحداً ممن بحثوا المشكلة في الأونة الأخيرة لا يذكر فضل ابن جني وابن مضاء القرطبي في حملتهما على فلسفة العلة في النحو، وفي ملاحظات بعض اللغويين القدامى ما يفهم منها أن أصحابها لم يطمئنوا الاطمئنان كله إلى علة النحوي ومنطقه... وعندي أن مؤسس المدرسة الوصفية يجب أن يكون عربياً هو ابن مضاء القرطبي فإنه حاول أن يقضي على فكرة العامل والعلة في كتابه الصغير الحجم الكبير الفائدة "الرد على النحاة" »⁶.

3. تمام حسان والمواشجة بين التنظير والتطبيق

يرى أغلب الدارسين أن تمام حسان هو أول لسانی عربي قدم المنهج الوصفي في اللسانيات العربية الحديثة؛ حيث اتسم طرحه . حسب حلمي خليل . بالدقة والشمول، كما يعتبره عز الدين المجذوب الأسبق في التعريف بالمنهج الوصفي على غيره وصاحب أوفى قراءة للتراث النحوي العربي من خلال تأليفه الأربعة؛ فقد عرض في إثنان منها أصول اللسانيات الوصفية وهما مناهج البحث في اللغة، و اللغة بين المعيارية والوصفية، وإثنان خصصهما لدراسة التراث وتقييمه وهما اللغة العربية معناها ومبناها، ثم كتابه الأصول⁷، ويذهب مصطفى غلفان إلى أن

كتابات تمام حسان من أبرز الكتابات التي سعت إلى تخليص النحو العربي من الشوائب والمعوقات العالقة به من تجريد وتعليل وحذف وعامل وتقدير⁸، ويمكن تلخيص الأصول التي بني عليها تمام محاولته لتقديم دعوته في أصلين هما:

1 . نقد التفكير اللغوي العربي القديم ووصفه بالمعيارية؛ أي البناء على الموضوعية بوصفها معيارًا صارمًا مُحددًا للعلمية⁹.

2 . وفي مقابل ذلك الدعوة إلى المنهج الوصفي في دراسة اللغة الذي يلخصه تمام نقلاً عن أستاذه فيرث بقوله: « وإذا اصطبغ القرن التاسع عشر بالصبغة التاريخية فإنَّ القرن العشرين إنَّما يصطبغ بالوصفية [...] ويزداد استحقاق علم اللغة الوصفي لمكانته باعتباره مجموعة مستقلة من المواد المترابطة كالأصوات والتشكيل [phonologie] والجراماتيكا والمعجم والدلالات وما يمكن أن يسمى علم الاجتماع اللغوي »¹⁰.

من الواضح أن تمام قد استمد الأساس الأول من التنظير اللساني الغربي الحديث، فقد أطلق سوسير مصطلح المعيارية (normative) في سياق نقده الدرس النحوي الكلاسيكي، الذي بدأه الإغريق ثم واصله من بعدهم الفرنسيين، لكنه لم يبين علمية اللسانيات، كما صنع تمام ، على مجرد نقض المعيارية.

ويرى اسماعيلي علوي أنه إذا كان تمام حسان يحيل على قول سوسير بضرورة دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها إحالة ضمنية، فإن محمد عيد يشير إلى ذلك بشكل صريح، وهذا يعني أن موقف الوصفين تعبير عن انتماء صريح إلى الدرس اللساني الوصفي، وتبنى دعوته الرامية إلى استقلال الدرس اللغوي عن غيره من الدراسات الأخرى، فجاءت انتقاداتهم تصريحاً بعدم مطابقة مفاهيم النحو العربي لمنهجهم وتصوراتهم، فهم يرون منهجهم أكثر موضوعية، ويرمون ماسواه إلى المتاهة، وقد أطلق اسماعيلي علوي على هذه المعيارية من خلال بعض كتاباتهم

(بالمعيارية الطارئة) لأنهم يصفون النحو العربي برمته بالمعيارية؛ فتمام حسان نفسه ينعت النحو العربي بكامله بالنحو المعياري بناء على أراء جزئية وذلك مثلا في استشهاده بقول محمد بن مالك في ألفيته " فما أبيح أفعل ودع مالم ييح" فكيف تكون المعيارية طارئة في أعمال النحاة، وعامة في الوقت نفسه في النحو العربي، اعتماد على رأي أحد المتأخرين؟¹¹

وقد نتج عن هذه الدعوة إلى نبذ المعيارية، بتأثير من تصورات الفلسفة الوضعية تنازع منهجي وأصولي بين المقولة الأخيرة ومقولة الوصفية . على حد تعبير المسدي، إلا أننا نعتقد أن الجدل بالمعني الفلسفي العميق للمصطلح يقتضي الإلمام العميق بموضوع الجدل، وهو غير حاصل عند اللسانيين العرب المحدثين.

وعلى الرغم من وصف حلمي خليل لمنهج تمام حسان بالدقة المنهجية والشمولية بالإضافة إلى كونه يقف وحيداً في مجال تطبيق النظرية الوصفية على اللغة العربية، إلا أنه فيما يخص رائد الوصفية بلا منازع . والذي لا نعرف عالماً قد قدم هذه النظرية بنفس التحكم والوضوح العجيب حتى أضحى مآنتهى إليه من بديهيات العلم اللساني الحديث والمعاصر . فإنّ تماما . كما نعتقد . قدمه بصورة غامضة وبمفهوم في غاية من البساطة، حيث نفى الاستقلالية عن النظرية السويسرية، فيما حصل عند النقاد الغربيين شبه إجماع على أن كل القضايا التي طرحها سوسير كانت ترمي إلى ضمان استقلالية اللسانيات بوصفه علما قائما بذاته انظر على سبيل المثال، جون بياجيه في كتابه البنيوية، وذلك حين عرض إلى استقلالية اللسانيات . وهي معيار جوهري تنبني عليه علمية اللسانيات الحديثة والمعاصرة وهذا المعيار عند سوسير لم يتقطن إليه تمام حين ألحق بلومفيلد بمذهب علم النفس السلوكي، وسوسير بمذهب دوركايم الاجتماعي التركيبي حيث يقول : « وكما كان بلومفيلد تابعا لمذهب وايس السلوكي كان دي سوسير تابعا لمذهب

دوركايم الاجتماعي¹² التركيبي وفي كلتا الحالتين تستمد اللغة طريقتها من منهج غريب عنها مع التضحية باستقلالها في المنهج، فيرى أولهما أن اللغة مجموعة من ردود الأفعال المشروطة، ويراها الثاني بنية مركبة يمكن أن توصف باستعمال كلمتي رأسي وأقفي¹³.

ويرى عز الدين مجدوب أن تمثل تمام حسان لتاريخ اللسانيات فيه غموض وأخطاء في تصور المنعرجات الحاسمة ذلك أننا لا ندرك ما يميز اللسانيات من التفكير اللغوي الأروبي القديم، وكل ما يذكره أن التفكير اللغوي قد انفصل عن التفكير الفلسفي وهو قول يماثل الخطأ، ومن ذلك حكمه على بلومفيلد ودي سوسير بأن منهجهما يؤديان إلى التضحية باستقلال البحث اللغوي وهذا أمر يدل على عدم معرفته بدور هذين العلمين في ترسيخ استقلال المنهج اللغوي أو لعله يدل على انتماء ضيق لمدرسة لسانية أوقعه سجالها مع المدارس الأخرى في هذا القول¹⁴. والواقع أن فهم تمام لقضية الاستقلالية . كما نعتقد . هو الغريب والسادج وليس مفهوم سوسير الذي يستمد أصالته من الدعوة إلى استقلالية اللسانيات وإدراجها في علم شامل يدرس حياة العلامات في صلب المجتمع والذي اصطلح عليه سوسير منذ تاريخ 1894م بعلم الدلائل أو السيميولوجيا.

وليس من العلمية في شيء ما قدمه تمام من أحكام نقدية على جانب كبير من الأهمية والخطورة تعوزها قوة البرهان والشمول والتجانس، ولعل ما يميز محاولته النقدية . التي ما زاد فيها من شيء على سابقه بل تلقاها من النقاد الغربيين جاهزة دون أدنى تمحيص وعلى وجه الخصوص من أستاذه فيرث (J.R.Firth 1890-1960). هو اتصافها بالذرية لأنها مبنية على استقراء ناقص للأفكار، وذلك لقيامها على التشابه المحض وتوارد الأفكار بين عالميين ينتميان إلى مجالين مفهوميين متباينين أصوليا، حيث أفضت الذرية التي اتسم بها طرح تمام . في اعتقادنا . إلى

انتفاء سمتي الشمولية والنظامية في تناوله النقدي، وليست هذه السمة الأخيرة في واقع الأمر إلا اقتضاء منطقياً يلزم من السمة الأولى، كما أفضت سمة الذرية كذلك إلى انتفاء سمة تشرب المنظومة الاصطلاحية السوسيرية. حيث أورد تمام مصطلحات لم يستخدمها سوسير إطلاقاً. بالمعني الذي أوردته تمام. على مدار كل تفكيره، والمقصود بهذه المصطلحات قول تمام "بنية" ثم زاد المصطلح غموضاً عندما وصفه بـ: "المركبة" فإن كان تمام يطلق مصطلح بنية مرادفاً لمصطلح "النظام" فإنّ دو سوسير لم يطلق في منظومته الاصطلاحية سواء "بنية مركبة" أو "نظام مركب" إلا ما ورد من قول سوسير « le caractère trot complexe du système » ثم إنّ سوسير يطلق مصطلح "المركب" بالمعني الجبري له؛ أي الرياضي المحض، وما تركيزنا السالف على لغة العلم إلا لكونها ذات بال في حمل المنظومة المفهومية، بل إنّ المصطلح هو روح العلم اللساني.

يتسنى لنا دحض هذا التأثير أو هذه التبعية التي ذهب إليها تمام وأشياعه¹⁵ حين قدم هذه التبعية، أو هذا التأثير دون استدلال علمي رصين يستند إلى استقراء الفكر السوسيري من حيث هو نظام مفهومي شامل غير قابل للتجزئ، ومقارنته مقارنة علمية، فليس من المنهجية في شيء الاكتفاء بمحض التشابه أو توارد الأفكار بين عالمين ينتميان إلى مجالين مفهوميين مختلفين، ثم بناء الأحكام النقدية على محض هذا التشابه أو ما يبدو أنه متشابه في ظاهره وبممكننا أن نبني مقولة الدحض على ما يلي :

1. لقد نوقش بإسهاب أصل ومفهوم مصطلح "علم الاجتماع" (sociologie) وتاريخه الوارد في متن المحاضرات السوسيرية، ومن البديهي أن المصطلح الأخير يتصل مباشرة بعالمين معاصرين لدو سوسير اشتهر كل واحد منهما بمذهبه الخاص، وهما إميل دوركايم وتارد (G.Tard) حيث أفضى هذا النقاش المدعم بالدراسات النقدية

والفيلولوجية للمخطوطات من جهة، وكذا آمالي الطلبة من جهة أخرى، إلى الإقرار بعدم ورود أسماء دوركايم وتارد وعالم الاقتصاد ولراس وكلهم من المعاصرين لدوسويسر.

بالإضافة إلى هذا كله تأتي المخطوطات المنشورة حديثاً (2002) لتثبت هذه القضية. ثم إنَّ هذا لا يعني أن دو سويسر قد انتحل أفكار دوركايم وتارد ولراس دون أن يحيل إلى أصولها، وإنما يعني أن سويسر . رغم تشبعه بأفكار عصره . كان يزاول العلم بنبرة ذاتية، كما كان قليل الاستشهاد بغيره على حدّ وصف طالبيه الفرنسي أ. مبي، واستنادا إلى الدليل الفيلولوجي السالف يسوغ لنا الرد على القائلين بحصول التأثير أو التبعية كما زعم تمام تلقياً له عن بعض النقاد الغربيين، وتضعيف أقوالهم .

2 . أكد الباحثون الذين زاولوا الفكر السوسيري بالنقد والتأصيل . بالإضافة إلى الدليل الفيلولوجي السالف . أن سويسر كان على قدر يسير من المعرفة بعلمي النفس والاجتماع، بناء على دراسة مشمولات مكتبته¹⁶ . حيث يمكن بدل هذا أن نفسر هذه القضية من خلال كشف الأصول التي بنى عليها سويسر نظريته، ذلك أن سويسر قد قرن القول بالطابع الاجتماعي للسان بالعوارض (ما يطرأ في الزمان) التاريخية؛ أي أنه بني كل التفرعات النظرية على مبدأ اعتبارية الدليل اللساني المفضي إلى الإقرار بالطابع الاجتماعي التاريخي للسان، بمعنى أن الطابع الاجتماعي للسان لازم من طابعه التاريخي، وهذا ما توضحه تمام الوضوح المخطوطات المنشورة حديثاً سنة 2002.

وعلى ما تقدم نخلص إلى القول؛ إنَّ سويسر استمد أصوله من ملاحظة الطريقة التي تتغير بها اللغات ولم يستمد أصوله من علم النفس، أو علم الاجتماع. وبعد هذا الذي أثبتناه من كون تمام لم يدرك جيداً الصلة التي عقدها بين سويسر وأنطوان مبي . وتبعه في ذلك جل اللسانيين العرب المحدثين من الوصفيين وغيرهم . وفي مقابل دعوى تمام التي نفى من خلالها الاستقلالية عن الإسهام السوسيري .

والتي دحضناها كما نرجو أن نكون قد بينّا ذلك . يقدم تمام مفهومه لاستقلالية اللسانيات من خلال وجهة النظر التي ينظر من خلالها إلى اللغة حيث يقول : « وإذا نظرنا إلى اللغة باعتبارها مجموعة من النظم الوضعية الاجتماعية ذات أقسام من الأنماط والعلامات وجدنا أنه من الممكن أن نستقل بمنهجها عن مناهج العلوم. ويأخذ منهجها في اعتبار الشكل والوظيفة باعتبارهما أساسين من أسس بنائه يطبقان في كل فروع الدراسات اللغوية هذه الدراسات ليست إلا مجموعة متساقطة متكافئة متلاحمة من المناهج الفرعية¹⁷ لتناول الأحداث اللغوية منطوقة أو مكتوبة. ولقد وضعت هذه المجموعة من المناهج لتصل بنا إلى علاج اللغة علاجا ابركاليا [Empirique] تحليليا مستقلا بمعنى أنه لا يتخذ نقطة بداية له في أي علم غير علم اللغة نستطيع أن نسمي هذا المنهج شكليا أو وظيفيا، وجهة النظر الوظيفية لم تختر اعتباطا و إنما جاءت من أن اللغة تستخدم وسيلة من وسائل الاجتماع وأداة ذات غرض محدد كما يقول مارتيني¹⁸ .

لا مناص قبل أن نسدد النقد على مفهوم الاستقلالية عند تمام من بيان محمول تمام من مصطلحه " وجهة النظر الوظيفية " ؟ أو بمعنى أدق هل بنى تمام تحليلاته على اعتبار أن وظيفة اللغة الأساسية تنحصر في التواصل؟ كما يبدو لنا ذلك ظاهريا من خلال استشهاده برأس المدرسة الوظيفية.

يجيبنا تمام عن السؤال الجوهرى السالف بقوله: « ومادما ننظر إلى اللغة باعتبارها العقلي¹⁹ ؛ أي كوسيلة من وسائل الاتصال ونقل الأفكار فسوف لا ندنو أبدا من الفهم التام لطبيعتها²⁰ ، وواضح تمام الوضوح من خلال إجابة تمام أنه لا يبنى تحليلاته على القول بأن الوظيفة الأساسية للسان تنحصر في التواصل، ومعلوم أن البناء على هذه المقدمة يلزم منه البحث عن تفسير آلية اشتغال اللسان، بل تبني تمام في مقابل ذلك مقولات مالينوفسكي بخصوص اجتماعية اللغة حيث يقول : « وهكذا

نصل إلى الجانب الاجتماعي للكلام، ويمكن أن يقال فيه نفس الشيء ففي الاختلاط الاجتماعي لا تنطق الكلمات في معظم الحالات لتقرر شيئاً أو تنقل فكرة أو توضح غامضاً، ونادراً ما تعبر عن شعور مشترك، ولكن لتخلق استكفاء للرغبة الاجتماعية. وهذا الجانب من الموضوع قد أكد عليه مالبينوفسكي في الماضي القريب»²¹.

كما يحمل تمام المنهج الوصفي مطلقاً - باستثناء مدرسة لندن - على المنهج التصنيفي، وإن دل هذا الذي ذهب إليه تمام إنما يدل في اعتقادنا على عدم شمولية طرحه بخصوص الأفكار الوصفية، واقتضاره بدل ذلك على مدرسة ضيقة من مدارس اللسانيات الوصفية التي استثنائها من القول بالتصنيف. والبناء على مجرد الاستقراء منتجاً بذلك النزعة الحسية النقلية الخالصة، التي تظهر لنا بكل وضوح في قول تمام : « والمعنى المدروس هنا [علم اللغة] هو مدلول العلامات سواء كانت هذه العلامات أصواتاً أو كلمات أو جملاً، فهو معنى يوصل إليه عن طريق المنهج الشكلي. وليس المقصود هنا المعنى النفسي، أو المعنى الذي تبحث فيه الابيستيمولوجيا (علم أصول المعارف) [بالمعنى الإنجليزي للمصطلح]، لأننا نباعد بين الفلسفة وبين الدراسات اللغوية، إذ نريد أن نجعل المعلومات اللغوية كلها برامجائية تنبني على الاستقراء بالحس، لا ترنسندنتالية [متعالية] تنبني على الحس والتخميين »⁽²²⁾.

وما يلاحظ على أقوال تمام حسان أن النحو العربي اشتمل على فترتين: فترة وصفية تقف عند عنصر الاستشهاد، وفترة معيارية تبدأ بانتهائه ويتوقف الاستقراء ورفض تجديد الشواهد، وإن كان الأمر كذلك لم لا يمكن التقريب بين سيبويه وبانييني، ولم لا يمكن التقريب بين التراث النحوي العربي في فترة الوصفية وبين النحو الهندي، يرى عز الدين مجدوب أن سبب هذه المآزق والتناقضات التي وقع فيها تمام يعود إلى ضعف التفكير في طبيعة النظرية عموماً وإلى عدم الانتفاع من

تميز ابيستمولوجي في النظرية العلمية بين الفرضيات العامة والمنوالات، فجهل هذا التمييز هو السبب المباشر للنقائص التي اتسمت بها قراءة تمام حسان للتراث النحوي²³.

وأكبر ما يعترض به . في اعتقادنا . على تمام في هذا الموضوع هو عدم تمييزه بين النزعة الحسية العقلية (بالمفهوم العربي القديم) التي تقوم على المشاهدة والاستقراء ومعاينة الأحداث وتصنيفها لاستنباط القوانين التي يتبناها تمام ويدافع عنها، وبين النزعة العقلية (بالمفهوم العربي القديم) الافتراضية الاستنتاجية التي تنطلق من مسلمة، ثم تولد عنها مجموعة من القواعد تستنتجها بفعل إجراءات مشفوعة ببرهان، من حيث إنه توهم . في اعتقادنا . تعارض مقولتي الاستقراء والقياس في حين أن التعارض قائم بين مقولتي الاستقراء والاستنباط هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يتقن تمام حسان . كما نعتقد . إلى أن التعارض بين مقولتي الاستقراء والاستنباط في اللسانيات راجع في أصله إلى الاختلاف بين اللسان والألسنة، ثم إن الاستقراء الذي يدافع عنه تمام هو استقراء في غاية من البساطة، حيث تظهر لنا ببساطة طرح تمام الذي يرى أن المنطق القياسي غير صالح للدراسات العلمية وذلك لاعتماده القاعدة أولاً ثم التفكير في المفردات التي تدخل تحتها، كما يرى أن البحث العلمي يعتمد المنطق الاستقرائي الذي يستقصي المفردات ثم يتخذ وجه الاتحاد بينها نتيجة للبحث²⁴، ونعني بالبساطة في هذا السياق قول تمام «...يستقصي المفردات...» ذلك أنه سلم أولياً (ما قبلها) بوجود مفردات جاهزة محدد سلفاً، ثم تجري عليها بعد ذلك طرق الاستقراء، في حين أن المفردات (أو أقسام الكلام) في حد ذاتها ناتجة عن تحليل لساني ينبني على وجهة نظر معينة (نظرية)²⁵؛ أي على منهج تحليل محدد مسبقاً، و هو ما يعني أن الوحدات (الأوضاع بصفة عامة) التي نباشرها في مجال التحليل اللساني

ناتجة عن نظرية إذ بدون نظرية عامة . على حد قول الحاج صالح . في اللغة ذاتها تتضح بها مفاهيمها وتتحدد عناصرها وآلياتها يضطر الباحث إلى أن يرجع إلى تحديدات الفلاسفة والنحاة التقليديين . ثم إنَّ تماما . في ظننا . يكون قد تساهل حيث جعل تحديد وجهة الشركة بين ما أسماه بالمفردات؛ أي إثبات الاتحاد مطلقا دون تمييز بين الاتحاد الآني والاتحاد الزماني في غاية من البساطة، ذلك أن تحديد وجهة الشركة بين المفردات يستلزم البناء على وجهة نظر معينة؛ أي بيان الحيثية المادية أو الصورية التي من خلالها نلحق مفردة بأخرى، ولا يكون هذا الإجراء بسيطا كما تصوره تمام، إلا إذ سلمنا بحصول التناسب بين المادة والصورة. وأعدنا ذلك الخل وجميع طرقنا الفاسدة في وصف أشياء اللسان المنجرة عن ذلك الافتراض اللاإرادي القائل بوجود جانب مادي في الظاهرة اللسانية.

و يرى تمام حسان أن إجراءات الاستقراء المتمثلة في التقسيم والتجريد هما أساسان لكل نشاط علمي أيا كان نوعه، أما في الطبعة الأخيرة لكتابه الأصول، 2000، ص 55. فقد استبدل تمام في هذا الموضع مصطلح التقسيم بمصطلح التصنيف (الذي ينتمي إلى مجال البيولوجية من حيث الأصل)، وهو ما استندنا إليه في حمل تمام على القول بالتصنيفية.

على أنَّ تمام ما زال يدافع عن صحة الاستقراء حيث هو طريقة من طرق الاستدلال العلمي محاولا في ذلك . كما يبدو . الدفاع عن تجانس فكره، حيث يظهر لنا رده على منتقديه . من أمثال الفاسي الفهري . بوضوح في الطبقات المعاصرة لمؤلفاته²⁶ .

4. خاتمة:

نخلص في ختام هذه الدراسة إلى وصف ما دار من نقاش بخصوص هذا الموضوع باعتبار ما نتج عنه بالعقيم، ذلك أنه لم يُولد أي نتيجة بعد مرور أكثر

من نصف قرن من التصارع، فلا الوصفية رسخت نفسها بوصفها منهجا بديلا وذلك من خلال زعزعة كل مصادرات المعيارية، وإفراغها من محتواها، وتقديم نموذج نظري وتطبيقي كامل، ولا المعيارية وحماة قداستها سايروا العصر، وانطلقوا من حيث توقف النحاة العباقر لتقديم منهج متجانس سليم من النقائص متمم بالدقة والوضوح والشمول والاقتصاد، وذلك إذا ما أخذنا في الاعتبار الكم الهائل من المعارف القديمة وامتدادها الزماني والمكاني الواجب تحديده بصرامة.

- تبين لنا أن التيار الوصفي العربي الحديث يندرج ضمن النزعة التوفيقية اندراجا تاما، من حيث إجراؤه المتمثل في انتزاع المفاهيم من أنساقها المفهومية، ومحاولة إدراجها في نسق مفهومي واحد.

- كما لزم من صفة التوفيق صفة الذرية (اللانظامية) التي اتسم بها الخطاب اللساني الوصفي العربي الحديث، من حيث إنه لا ينبني على أساس فحص شامل لمسار انتقال البرهان؛ أي انتقاء سمة النظامية في استدلالاتهم، فتمام على سبيل المثال يبني استدلالاته من حيث المرجعية التأسيسية على انتقاء واضح؛ أي على أساس توفيق، وذلك أنه يقتبس فكرة سياق الحال من أستاذه فيرث من جهة، ويسكت عن أقوال فيرث بخصوص مناسبة الصوت للمعنى، في مقابل ذلك كله يلجأ تمام عن طريق إجراء يعوزه المبرر و التسويغ المنهجي إلى اقتباس فكرة اعتبارية الدلالة من عبد القاهر الجرجاني.

5.المراجع

¹ . A. Hadj Salah , linguistique arabe et linguistique générale, 1979 , Tome I, 1979 ,p.1054 .

² . وتتجسد الاعتبارية عند عبد القاهر الجرجاني(ت 471) عند حديثه في شأن " نظم

الكلام": نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا

الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال رَيَضَ مكان ضَرَبَ لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"

³ . A. Hadj Salah , linguistique arabe et linguistique générale, 1979 , Tome I, 1979 ,p.1054 .

⁴ . جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، كتاب الاقتراح في علم أصول النحو، (تح و تعليق أحمد محمد قاسم)، القاهرة، 1976، ص134.

⁵ . ينظر عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية- نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1986، ص 58.

⁶ . أنيس فريحة، نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1981، ص 116.

⁷ . عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي- قراءة لسانية جديدة، دار محمد علي الحامي، ط1، صفاقس، 1998، ص37.

⁸ . ينظر، مصطفى غلفان، اللسانيات العربية أسئلة المنهج، دار ورد الأردنية، الأردن، ط3، 2013، ص 187.

⁹ . والواقع أن ما ذهب إليه تمام في هذا الموضع وآخرون ينبني على تبسيط لمفهوم العلمية في اللسانيات الحديثة، ذلك أن سوسير رائد اللسانيات الحديثة لم يبين مفاهيمه الجوهرية على نقض المعيارية حيث لم يرد مصطلح المعيارية في نص المحاضرات إلا ثلاثة مرات فقط في الصفحات التالية : F.De Saussure, p.13, et 24, p.118.

كما أن المصطلح الأخير لم يرد في المخطوطات المنشورة حديثا 2002 ، التي تقع في 334 صفحة كما أسلفنا إلا مرتين فقط في ص 272 وص 273.

¹⁰ . تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، القاهرة، 1986، ص37. نقلا عن

: Firth, Personality and language.

¹¹ حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2009، بيروت، ص ص 251، 252.

¹² . A. Hadj Salah , linguistique arabe et linguistique générale, 1979 , Tome I, p.40.

- ¹³ . تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 37.
- ¹⁴ . عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، ص ص42، 41.
- ¹⁵ . نقصد بالأشياء في هذه الموضوع أتباع تمام في هذه القول فقط . وإن كان على عبد الواحد وافي هو أول من أشار إلى هذه الصلة من الناحية التاريخية انظر كلا من :
- . محمود السعران، المرجع السابق: « بنى دو سوسير نظريته في اللغة على أساس نظرية دوركايم الاجتماعية[...].إن ما قرره دوركايم عن الظاهرة الاجتماعية يصدق على اللغة في نظرية سوسير اللغوية» 245.
- . حمد حسن عبد العزيز، سوسير رائد علم اللغة الحديث. القاهرة، دار الفكر العربي، 1990ص113.
- . محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، القاهرة، دار الفكر العربي1998، ص 295.
- . فيما ذهب بعض المشتغلين بالمجال اللغوي إلى الإقرار - دون أي تحرج - بأن دوسوسير قد تتلمذ على يد العالم الاجتماعي الفرنسي دوركايم انظر :
- . إبراهيم السمراي، التطور اللغوي التاريخي: « وكان[سوسير] قد تأثر بأستاذه دوركايم] في نهجه ولذلك هذه المدرسة السوسيرية تتحى منحى اجتماعيا، فاللغة من مظاهر النشاط الاجتماعي وهي لا تخلو من تأثر بالمنطق وقد وجدت هذه المدرسة أتباعها في الباحثين الفرنسيين ...» ص24.
- . انظر كذلك بخصوص الأقوال السالفة مؤلفات علم الاجتماع :
- . علي عبد الرزاق جبلي وآخرون، نظرية علم الاجتماع. مصر، دار المعرفة الجامعية، 1998: « ولقد أشار العلم اللغوي الفرنسي المعاصر أنطوان ميليه الذي درس مع دوركايم و سوسير إلى أهمية علم الاجتماع الدوركايمي بالنسبة لنظرية سوسير في اللغة، كما تابع سوسير بنفسه الحوار الذي أجرى بين دوركايم وتارد « . ص ص 238-239.
- . محمد السيد علوان، المجتمع وقضايا اللغة، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1995ص 256.

G.Mounin,la , 1975,J.L.Calvet , Pour et contre Saussure, Paris ¹⁶ .

linguistique du Xxè siècle, p.50.

¹⁷ . وهذا الذي خرج إليه تمام في هذا الموضوع لازم عن البناء على مبدأ فيرث (poly système) انظر بخصوص هذا المفهوم عند فيرث : روبنز ، المرجع السابق، ص335 . وجفري سامسون، المرجع السابق ، ص228. وهو ما يطلق عليه تمام مصطلح تعدد الأنظمة أو ما يسميه بـ " منظمة من النظم " انظر مناهج البحث في اللغة، المرجع السابق، ص66 أو متعدد النظم الذي يشرحه بقوله: « بمعنى أنّ فيها نظاما أصواتيا إلى جانب نظام صرفي وآخر نحوي وهلم جرا وهذه النظم المتعددة متماسكة متضافرة تتعاون ميعا في خلق هذه المنظمة الاجتماعية الكبرى . اللغة المعينة» مناهج البحث، ص42.

¹⁸ . تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص37.

¹⁹ . وهذا ما يفسر غياب مفهوم اللسان من حيث هو صورة عند تمام حسان على الرغم من اقتباسه من الصفحة 155 من المحاضرات السوسيرية، الأصل الفرنسي، أنظر، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص278.

²⁰ . تمام حسان، المرجع نفسه، ص49

²¹ . تمام حسان، المرجع نفسه، ص ص 50-51.

²² . تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص229.

²³ . عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، ص ص47، 48.

²⁴ . تمام حسان، المرجع نفسه، ص33.

²⁵ . فاردينان دي سيوسير، دروس في الألسنية العامة، (تر: محمد الشاوش و محمد عجيبة)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1985، ص 170، وهذا القول لسوسير يؤكد ما ورد في المخطوطات في كون النظرية لا يمكن أن تبنى إذ تم تجاوز إجراء التعريفات الأولية

²⁶ . تمام حسان، اللغة بين المعيارية و الوصفية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1958،

ص 10.